تخليد ذكرى أحداث 7 أبريل 1947 بالدار البيضاء
استحضار واستظهار لنضالات أبناء هذه الحاضرة المجاهدة في مسيرة الكفاح الوطني
الذي خاضه العرش والشعب في سبيل الحرية والاستقلال والسيادة الوطنية والوحدة الترابية

استحضارا للملاحم البطولية لمسيرة الكفاح الوطني من أجل الحرية والاستقلال وتحقيق السيادة الوطنية والوحدة الترابية، ووفاء لأرواح الشهداء الميامين الذين أبلوا البلاء الحسن في معترك المقاومة وساحة النضال الوطني والتحرري، يخلد الشعب المغربي، ومعه أسرة الحركة الوطنية والمقاومة وجيش التحرير وساكنة حاضرة الدار البيضاء يوم 7 أبريل من كل سنة ذكرى أحداث 7 أبريل 1947.

ففي 7 من شهر أبريل 1947، أقدمت قوات الاحتلال الأجنبي على اقتراف مجزرة رهيبة في حق ساكنة الدار البيضاء للحيلولة دون قيام جلالة المغفور له محمد الخامس رضوان الله عليه بزيارة الوحدة التاريخية لمدينة طنجة يوم 9 أبريل 1947، لما كانت تهدف إليه تلك الرحلة الميمونة من تأكيد مطالب المغرب المشروعة في نيل حريته واستقلاله وتحقيق وحدة ترابه الوطني وتمسكه بانتمائه العربي والإسلامي.

ونحن نخلد اليوم أحداث الدار البيضاء الدامية في ذكراها الخامسة والسبعين، وجبت الإشارة إلى أن الملاحم والمعارك البطولية ضد محاولات التسرب والتدخل الأجنبي في الشؤون الداخلية للمغرب لم تكن وليدة القرن العشرين، بل بمجرد ما استتب الأمر للاحتلال الفرنسي بالجارة الجزائر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، توجهت أنظاره واشرأبت أعناق أطماعه صوب المغرب، حيث دخلت قواته العسكرية في مناوشات وتربصات على حدوده وثغوره لتتوالى الهزائم العسكرية التي تعرض لها بدءا بحربي إيسلي في سنة 1844 وتطوان في سنة 1859-1860.

ومنذ ذلك الحين، أصبح المغرب معتركا للعديد من المناوشات والمواجهات وعقد التسويات. وهكذا اعتبرت الدولة الاستعمارية أن جوارها للمغرب يمنحها حقوقا ليست لغيرها من الدول، وأن الوجود الاستعماري بالجزائر الذي قادها إلى تونس سوف يقودها أيضا إلى المغرب، لذلك حاولت تكثيف جهودها للسيطرة عليه، ولجأت إلى سياسات وإغراءات المطالبة بالإصلاحات والقروض، وقد أعطت هذه السياسة أكلها، حيث أن قرض سنة 1904 سمح للمراقبين الفرنسيين بالجلوس إلى جانب أمناء الموانئ المغربية لاستخلاص الدين الفرنسي.

وبعد مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1906 وما أسفرت عنه مخرجاته من إطلاق أيادي السلطات الاستعمارية على المغرب، أصبحت قواتها العسكرية الغازية تبحث بكل الآليات والوسائل المشروعة وغير المشروعة لذريعة تمنحها حق التدخل في شؤونه الداخلية، وهكذا انتهزت حدث مقتل أحد عملائها في مراكش وهو الطبيب "موشان" لتقصف مدينة فكيك وتحتل مدينة وجدة في مارس 1907 انطلاقا من الحدود الجزائرية، وهي نفس الذرائع التي استغلتها حينما توسعت في واحة توات سنة 1900 بدعوى ملاحقة المتمردين والمتعاونين مع الأمير عبد القادر الجزائري. وذات الادعاءات والمبررات وظفتها القوات الاستعمارية وهي تشن غارتها البحرية على مدينة الدار البيضاء التي تعرضت لدمار وتخريب شامل من طرف المدفعية الفرنسية يومي 5 و7 غشت من سنة 1907 على إثر حدث مقتل تسعة عمال أجانب الذين كانوا يقومون بأعمال بناء خط السكة الحديدية منتهكين حرمة مقبرة قديمة للمسلمين، وهو ما اعتبر تدنيسا للمقدسات الدينية للمغاربة.

هذه الهجومات والانتهاكات التي تعرضت له المدينة إن كان يبدو في ظاهره على أنه رد فعل اتجاه أعمال التخريب التي قام بها سكان مدينة الدار البيضاء اتجاه شركة البناء التي كانت تعتزم ربط مرفأ الميناء بالرصيف، إلا أنها في واقع الأمر كانت نوايا راودت القوى الاستعمارية الفرنسية منذ سنة 1903، والمتمثلة في السيطرة على أحد أهم المراكز التجارية البحرية في شمال أفريقيا، وهو ميناء الدار البيضاء الذي قال عنه "لوموان" Le Moine: "فميناؤها واسطة عقد الموانئ المغربية المفتوحة للتجارة، ويوجد وسط سهول الشاوية الخصبة".

فما أن احتلت جحافل القوات الفرنسية مدينة الدار البيضاء في 7 غشت 1907 وتوجهت أنظارها لزحف نحو بسيط الشاوية لاحتلالها، حتى سارع أبناء هذه الربوع المجاهدة إلى حمل السلاح والدعوة للتعبئة للجهاد في صفوف القبائل المجاورة، حيث جابهت قوات الاحتلال الفرنسي في معارك عدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر؛ معركة دار بوعزة في 28 غشت 1907 ومعركة سيدي مومن في 3 شتنبر 1907 ومعركة سطات الأولى في 15 يناير 1908 ومعركة عين مكون في 24 يناير 1908 ومعركة دار قصيبات في 2 فبراير 1908

ومعركة سيدي الجبلي ومعركة مديونة في نفس السنة، وغيرها من المحطات النضالية الغراء الشاهدة على رفض الشعب المغربي للغزو الفرنسي لأراضيه ومناهضته للوجود الاستعماري والاحتلال الأجنبي، لتَلُوحَ بعد ذلك تَباشير النضال السياسي الذي برزت ملامحه بالمدن، قبل اتساعها لتعم القرى والمداشر بفضل حملات التحسيس والتنوير ونشر الوعي الوطني وإلهاب الحماس الشعبي في صفوف الشباب وسائر فئات وشرائح المجتمع المغربي بكافة مشاربه وأطيافه، لإذكاء الهمم والعزائم ولمواصلة النضال الوطني من أجل الانتصار للقضية الوطنية التي هي حرية الوطن واستقلاله وسيادته ووحدته.

ومن تجليات هذا المسار الجديد الذي نهجته الحركة الوطنية قراءة اللطيف تنديدا بما سمي بالظهير البربري التمييزي العنصري الصادر في 16 ماي 1930، ثم المطالبة بالإصلاحات سنة 1934 لتأتي المبادرة التاريخية الرائدة لتقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال من لدن قادة الحركة الوطنية في 11 يناير 1944 بتشاور وتوافق مع بطل التحرير والاستقلال جلالة المغفور له محمد الخامس، هذا الحدث التاريخي الذي قض مضاجع الإقامة العامة للحماية الفرنسية وبعثر مخططاتها وحساباتها، فسارعت إلى اعتقال زعماء وقادة الحركة الوطنية والتنكيل بالمؤيدين والمناصرين للوثيقة التاريخية وإيداعهم في السجون أو إبعادهم إلى المنافي.

وإن الذاكرة التاريخية الوطنية لتختزن أحداثا مشهودا بها من أيام هذه المدينة المناضلة، المعروفة لها بالغيرة الوطنية والصمود ونكران الذات والتضحيات الجسام التي بذلها أبناؤها في رياض العمل الوطني والمقاومة والتحرير، دفاعا عن المقدسات الدينية والثوابت الوطنية، وتحديا لسلطات وقوات الاحتلال الأجنبي أثناء مواجهات يوم 7 أبريل 1947، إذ تصدى البيضاويون بكل إيمان وشجاعة وإقدام لحملات التنكيل والتقتيل التي شنتها عليهم القوات الاستعمارية بدوافع انتقامية وعدوانية.

فقد اختلقت السلطات الاستعمارية ذرائع أوهن من بيت العنكبوت ليدفع الطاغية فيليب بونفاص، رئيس ناحية الدار البيضاء جنوده وزبانيته إلى ترويع وتقتيل المواطنين بكل من أحياء ابن مسيك وكراج علال ومديونة ودرب الكبير والأحياء المجاورة دون تمييز بين أطفال وشيوخ ونساء، فسقط المئات من المواطنين بين شهداء وجرحى ومعطوبين، واعتقل العديد من النشطاء الوطنيين والنقابيين والمناضلين وعموم المواطنين.

بيد أن بطل التحرير والاستقلال والمقاوم الأول، جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه، تحدى قوات الاحتلال الغاشم، وأدرك أبعاد وأهداف المؤامرة الدنيئة التي أقدمت عليها سلطات الإقامة العامة للحماية الفرنسية، فتوجه إلى مدينة الدار البيضاء ليواسي عائلات الضحايا ثم ليتوجه بعد ذلك إلى مدينة طنجة للقيام بزيارته في موعدها المقرر، محبطا بذلك مناورات السلطات الاستعمارية. وكذلك ألقى خطابه التاريخي في 11 أبريل 1947 بطنجة، والذي أكد فيه للعالم أجمع إرادة الشعب المغربي وعزمه على المطالبة بحريته واستقلاله، معلنا أن المغرب متمسك بسيادته ووحدته وصون كيانه الوطني.

وقد كان من آثار أحداث 7 أبريل 1947 الدعوة إلى تنفيذ إضراب عام بالمدن المغربية، وتعبئة فعاليات المجتمع المغربي لتقديم العون والمؤازرة للعائلات المتضررة، وتعزيز المواقف المنددة بالاحتلال الأجنبي، وشجب مؤامراته التي أودت بحياة الأبرياء وعكرت صفو عيش المواطنين. غير أن هذه الأحداث المؤلمة زادت في تأجيج الروح الوطنية وإذكاء مشاعر النضال الوطني لإنهاء الوجود الاستعماري وإصرار العرش والشعب على مواصلة الكفاح الوطني، خاصة إثر إقدام السلطات الاستعمارية على نفي الملك الشرعي جلالة المغفور له محمد الخامس وأسرته الشريفة يوم 20 غشت 1953 إلى المنفى السحيق، فلم تهدأ ثائرة الشعب المغربي وطلائعه في المقاومة إلا بعودة العاهل المفدى إلى عرشه ووطنه، حاملا لواء الحرية والاستقلال.

وإن أسرة الحركة الوطنية والمقاومة وجيش التحرير وهي تخلد ذكرى شهداء أحداث 7 ابريل 1947 لتتوخى استحضار ملاحم وفصول الكفاح الوطني والتضحيات الجسام التي قدمها الشهداء الأبرار والإشادة ببطولاتهم والتعريف بإسهامات جميع شرائح المجتمع المغربي بقيادة العرش في سبيل الحرية والاستقلال والكرامة والوحدة الترابية، واستلهام ما تزخر به هذه الملاحم من قيم وطنية، وهي تهدف من خلال إحيائها وتخليدها هذه المناسبة وغيرها من الذكريات الوطنية التعريف بأمجاد الأمة المغربية وبتاريخها النضالي الخالد وتلقين مضامينها ورسائلها البليغة للأجيال الحاضرة والمتعاقبة صونا للذاكرة الوطنية انسجاما مع التوجيهات السامية لصاحب الجلالة الملك محمد السادس حفظه الله الذي أكد في أكثر من مناسبة على ضرورة إيلاء المزيد من العناية لتاريخنا الوطني المجيد والتزود من ينابيعه الفياضة والغزيرة لتعزيز مسيرات الحاضر والمستقبل.